



# الشعر العربي المعاصر

## بين الاصالة والتجديد

لقد كان الشعر العربي في العصر الجاهلي يعبر بوضوح عن الإنسان العربي ، في احساسه الذاتية وهوومه الجماعية ، وكان في هذه وتلك يصور تجارب معيشته ، انفع الشعراء بها واهتز وجدانه حيالها . وكان الشاعر الجاهلي شديد الارتباط ببيئته ، مفتونا بالتعبير عن كل ما تحويه ماديا ومعنويا . تم كان شعره تسجيلا فنيا لحياته من جانب ، وزيادة لحياة افضل من جانب آخر . واخيرا كان شعره وعاء حافظا لكل ما آثره من فضائل ، ولما فضله من قيم .

ومن هنا يمكن ان نبرز الملامح الذاتية المبكرة للشعر العربي ، التي تعتبر الخطوط الاولى في صورته . وهذه الملامح هي : التعبير بصدق ووضوح عن تجارب الذات ومشكلات البيئة ومظاهر الطبيعة ، والاهتمام بتعميق الاحساس بالروح العربية والقيم العربية والفضائل العربية ، التي في مقدمتها : الابداء والحرية ، ورفض الهوان والاستعباد ، وبذل الروح في سماحة وفخر فداء الارض والعرض والحفاظ على العهد .

ثم جاء الاسلام ، وكان ثورة فكرية واجتماعية ، زالت كثيرا من القيم التي كانت مستقرة في العصر الجاهلي ، وبخاصة تلك القيم التي لم تنضج انسانيًا ، ولم تبلغ مستوى اخلاقيا راقيا . وهنا توقف الشعر العربي قليلا ، في محاولة لهضم القيم الجديدة واستيعابها ، وفي محاولة ايضا للتخلص من ماتورات كانت مجالا فسيحا له فيما قبل . ومن هنا بدأ النتاج الشعري في عصر صدر الاسلام قليلا نسبيا ، حتى ظن البعض ان الاسلام حارب الشعر وعوق مسيرته ، بينما لم يعد الامر ان يكون محاولة من اشعر نفسه للتجديد والتكيف ومواكبة الثورة الكبرى التي اشعلها الاسلام .

وهكذا تنضج خاصة اخرى من خصائص اشعر العربي ، أو تجرز سمة من سماته الاصلية ، وهي انه شعر متطور لا يعرف الجمود ، ولا يتحجر عند عصر أو بيئة أو نظام خاص . وانما هو مستجيب ابدا لحركة الحياة من حوله ، مستعد دائما للتكيف معها وهضمها والتعبير عنها ، حتى لو اقتضى الامر وقفة مستأنية ارجعة الماضي ودرس الحاضر واستشراف المستقبل ونصحيح المسيرة ، كما فعل في عصر صدر الاسلام .

ثم بدأ الشعر يعود الى الانتعاش في العصر الاموي ، فخرج عن الانسان العربي الجديد ، وعن مجتمعه وقيمه ، ولكن مع بعض رواسب من العصر الجاهلي ، وهي رواسب كثير منها فنى يتصل بتقاليد الشعر ويرتبط بموروثه في الشكل والاسلوب وطريقة التصوير والتعبير . وهنا تبرز سمة اخرى من سمات الاصلية في الشعر العربي ، وهي انه لا يتغير - مهما تغير - متخلصا من كل موروثه ، ولا مستبدلا كل تقاليده ، وانما يتطور محتفظا - دائما - بعناصر تاريخية فنية ، هي بعض سماته ولونه واريجه ، حتى لقد وجدنا في شعر العصر الاموي رواسب من تقاليد العصر الجاهلي ، بسلا وجدنا في بعض نماذج شعر صدر الاسلام حديثا عن الخمر وغزلا في المرأة ، كما يتضح ذلك في شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول . وذلك لان افتتاح القواعد بحديث الغزل والخمر كان ظاهرة فنية تاريخية مرعية ، فخصع لها الشاعر الصحابي الجليل ، واستقبل المسلمون الورعون

لعل من الواضح اننا لا نقصد « بالاصالة » في هذا المقام معنى التشبث المطلق بالقديم ، مع الفاء كل ذاتية ، فهذا المعنى من الخير ان تطلق عليه مصطلح « التقليدي » كما اننا لا نغني بالاصالة هنا معنى اتخاذ الجيد من القديم مثلا يحتذى ، مع بعض الاضافات التي تفرضها موهبة المحتذى او تفرضها طبيعة الظروف المتغيرة ، فهذا المعنى من الاصوب ان تخصص له مصطلح « المحافظة » .

وهكذا نقصد « بالاصالة » في هذا البحث معنى بعيدا كل البعد عن « التقليدي » القافلة العمياء ، وعن « المحافظة » الواعية الملتفتة بتعاطف الى الوراء . . وهذا المعنى الذي نقصده « بالاصالة » في مجال الحديث عن الشعر العربي المعاصر ، هو التمييز واتضح الشخصية . وكل هذا لن يأتي الا من تحقق السمات الخاصة ، التي هي خلاصة العناصر الباقية في روح الامة وطبيعتها ، وشتى مقوماتها في الفكر والثقافة والفن والحضارة جميعا .

ولعل من الواضح كذلك اننا لا نقصد « بالتجديد » هنا معنى استخدام اي جديد بطريقة عشوائية ، او بنقله نقلا اعمى لمجرد انه جديد ، فمثل هذا العمل ادخل في باب « التقليد » لان التقليدي ليست مقصورة على احتذاء القديم ومحاكاته وحده ، وانما هي ايضا من احتذاء وتجديد ومحاكاته كذلك دون وعي ومن غير اضافة خلاقة واقتدار على الابداع .

وهكذا نقصد ( بالتجديد ) الاخذ بالتجديد الذي لم يعرفه الاقدمون - عندنا - واستخدام هذا الجديد استخداما فنيا واعيا مبدا .

وبهذا الجديد ينضج المقصود من هذا البحث ، وهو ليس محاولة للمفاضلة بين « الاصلية » من جانب و « التجديد » من جانب آخر ، فهما في الواقع - او بعد هذا التحديد - ليسا نقيضين كما ان البحث ليس محاولة للتوفيق بين « الاصلية » والتجديد ، فهما في الواقع ليسا متخاصمين . وانما هذا البحث محاولة لتأكيد ان الشعر المعاصر - كأي فن - لا يسد لبائنه بنساء صحيحا ان يقوم على دعائمين متآزرتين ضروريين ، هما : الاصلية « والتجديد » ، وهذا يقتضي - بطبيعة الحال - بيان عناصر « الاصلية » في الشعر العربي والكشف عن مراحل تكونها وتخلقها حتى استوت كائنا متميزا السمات . كما يقتضي الامر كذلك الامام بابرز حركات التجديد واهم مظاهره عبر العصور الى العصر الحديث ، لنرى ما كان من هذا « التجديد » صالحا لتطوير هذا الشعر وانمائه ، دون ان يمس « اصلته » او يشوه سماته . .

وهذا قد يهدينا الى استنباط معيار فني صادق ، تقوم به ما يعرض من مشكلات تتصل بالشعر ونقده في العصر الحديث ، ولا يكاد يظهر فيها وجه الحق .

ولذا ربما كان الخير ان نلم الامة سريعة بمسيرة الشعر العربي ، منذ جاهليته الى اليوم لكن ننف - اولا - على اهم تلك العناصر الباقية التي خلدت فيه على مر العصور ، وكونت اخر الامر سمات اصلته ، ثم لكي نعرف - ثانيا - ابرز الروافد التي غذته خلال الحقب ، ومثلت في النهاية مدى مرونته وطبيعة تجده .

حديثه استقبالا فنيا متسامحا واما ، فاعتبر الحديث عن الخمر والمرأة امرا فنيا خالصا ، لا يلزم صاحبه بقيمة غير قيمة الفن ، ولا يحاسب الا بمعاييره .

وحين اطل عصر بني العباس ، وانتقلت عاصمة الدولة العربية من دمشق الى بغداد ، واختلط العرب بعناصر مختلفة من امم اخرى وبخاصة الفرس ، حدث تحول خطير في البيئة العربية والانسان العربي على السواء . اما البيئة فقد خرجت من بداوتها البسيطة الى مدينة معقدة ، وتخلصت من محافظتها ونقاؤها الى تحرير مفعم بالشوائب والغرائب .. واما الانسان العربي فقد اصابه هذا التحول الخطير بكثير من عدم القدرة على التمسك ، فكان البعض يتداعى امام مفريات اللهو المنبذل ، حتى يصل الى المجون او الزندقة ، كما كان البعض يقاوم ، حتى يبلغ حد الاعتزال او الزهد .. وانعكس هذا على الشعراء - او ظهر في شعرهم - فكانت ثورة ابي نواس وجيله ، ممن راوا وجوب التعبير عن هذا المجتمع الجديد والانسان الجديد ، بكل ما فيه من شك وقلق ورفض ومجون وسخرية حيناً ، ومن اناة وايمان ويقين وزهد حيناً آخر.

وهكذا ظهرت فورة كبيرة في محيط الشعر العربي ، مست كثيرا من جوانبه المتصلة بالضمون او الرنطة بالشكل . حيث استقلت الخمرات والمجونيات والقليات الشاذة ، الى جانب الزهديات والالهيات والتأملات الجادة . وحيث لجا كثير من الشعراء الى استحداث منهج جديد للقصيد ، وبخاصة في افتتاحيتها . كما حل التصوير الحضري محل الرسم البدوي ، ومال الاسلوب الى كثير من السلاسة والبساطة والصفى الذي يلائم حياة المدينة والحضر . كذلك تضمن الشعر مادة فكرية تصل احيانا الى درجة الجدل المنطقي او التعمق الفلسفي ، نتيجة لما كان من حركة فكرية ضخمة استمدت كثيرا من فلسفة اليونان وحكمة الهند .

ولكن هذه الفورة الكبيرة التي تاجت في ايام ابي نواس ، هدأت في ايام ابي تمام ، بعد ان زالت الفاشية عن النفس العربية ، وبعد ان انكشفت الغشاوة عن المجتمع العربي ، وبعد ان الف العرب تلك الحضارة الجديدة ، وتجاوزوا مرحلة الانبهار بها ودخلوا مرحلة تأملها ونقدها واختيار الصالح منها . حينئذ عاد الشعر العربي - مع ابي تمام وجيله - الى اصالته ، ورفض كثيرا مما اصابه او فرض عليه ايام الفورة مما يتنافى مع الطبع العربي والروح العربي والقيم العربية . فاختفى شعر الشعوبية والاستخفاف بالروية ، وتقلص شعر المجون والزندقة حتى لم يعد له مكان ، ودرست ظاهرة افتتاح القصائد على طريقة ابي نواس تقريبا ، ومال منهج القصيدة العربية الجادة الى الظهور ، كبرد فعل لتطرف ابي نواس واصحابه ، كذلك عاد استهلاك الحياة العربية والبيئة العربية - حتى البدوية منها - في التصوير والتعبير ، حتى تعود الى القصيدة العربية ملامحها التي شوهدت وطهرتها الفنية التي لوئت . ولم يتوقف ابي تمام وجيله ، او يرتدوا بالشعر وينكسوا به حين فعلوا ذلك ، لانهم عبروا عن عصرهم اصلى تعبير ، حتى ليمكس شعرهم صورة هذا العصر بكل ما فيه من حضارة وفكر وثقافة وفن ، ورغم هذا الذي كان منهم من طرح مذهب ابي نواس وجيله ، وقد بلغ هذا الاتجاه الذي راده ابو تمام ذروته مع ابي الطيب التنيني ، حتى ليمكن ان يعتبر هذا الشاعر الكبير اعظم من مثلوا قيمه .

ومما حدث للشعر العربي في العصر العباسي ، من لندن ابي نواس الى ابي الطيب ، يمكن ان تبرز بعض الملامح الذاتية للشعر العربي ، التي تشارك مع الملامح السابقة في تشكيل صورته الاصلية وطبيعته المميزة . ومن هذه الملامح التي اضافها تاريخه في العصر العباسي : ايثاره للجد ، ونفرته من التبذل واللهو البذيء والمجون الرخيص ، ثم تعلقه بالقيم النبيلة والاهداف الكريمة ، التي عاش عليها الانسان العربي والمجتمع العربي في عصور استقراره ووعيه وادراك حقيقته .

ومن هذه الملامح التي اضافها تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي كذلك ، والتي شاركت في تشكيل صورته الاصلية وطبيعته المميزة : هضمه للثقافة العميقة حتى ولو كانت مغللة في العقائدية على ان تخرج بعد ذلك في صورة شعرية فاضلة رفاة ملائمة لطبيعة الشعر . ثم مرونة فوالبه اللغوية والموسيقية والتصويرية ، بما يلائم حركة الحياة ومتطلباتها في البيئة الجديدة .

ثم كان الوجود العربي في الاندلس ، وانتقلت الاتجاهات الشعرية الشرقية الى هناك ، واخذ الشعراء الاندلسيون يعبرون عن ذواتهم وبيئتهم ، مضيفين الى ملامح الشعر العربي اضافات حسبت لهم ، كعميق اللون المحلي ، وتقليب الجانِب العاطفي ، وزيادة التنويع الموسيقى . وكان هذا الجانِب الاخير هو اهم ما اضافوه الى ملامح الشعر العربي . فقد اخترعوا الموشحات مطورين بها موسيقى الشعر نظيرا كبيرا . وبشيوخ هذه الموشحات بينهم وفي كل البيئات العربية ، برز هذا الطابع الذي يجب ان نقف عنده في طبيعة الشعر العربي ، وهو انه قابل دائما لتطور موسيقاه ، ولا يشترط ابدان تلك الموسيقى ان تكون هي موسيقى القصيدة الملزمة لوحدة البحر ورتابة القافية . فقط يجب ان تكون هذه الموسيقى ممثلة عنصرا اساسيا من عناصر العمل الشعري ، وذلك بان تكون من الوضوح بحيث تؤدي وظيفة لا تقل عن تلك التي تؤديها الكلمات والتعبير والصور . ثم اعقب انهيار دولة بني العباس وسقوط الاندلس تخلف للامة العربية ، بسبب ما اصابها من نزق في الداخل ، وبما تكبت به من عدوان من الخارج . وثناء ذلك التخلّف - اندي وصل حضيضه في العصر التركي - تخلف الشعر العربي بصفة عامة ، ولم يعد في جملته الا الوان من المحاكاة للتقديم بل تقليدا للرديء من نماذجه .

ومن هنا اثبت الشعر العربي انه لا يعيش بعيدا عن الرقسي الحضاري والازدهار السياسي والاجتماعي والفكري والثقافي والفني ، ولا يمكن ان يكون مجرد لغة تنظم الفاظها ، وترص تراكيبها وتتابع تفاعيلها وقوافيلها .

واخيرا اشرق العصر الحديث ، واتصلت امتنا من جديد باسباب الحضارة ، واطلنتها حركة بعث في السياسة والاجتماع والعلم والفن . وكان من اهم اسباب ذلك ، اتصالها بمناخ الحضارة الغربية الحديثة من جانب ، وتنبها الى منابع القوة في الحضارة الغربية القديمة من جانب اخر . وهنا عاد الشعر العربي - كثير من الفنون - الى حياة نشطة ، واخذ يجدد مسيرته ، حتى قطع شوطا كبيرا في سبيل وجوده الكريم ، بدأه من عهد البارودي في منتصف القرن الماضي ، ما زال يخطو نحو غايته في عهد اصحاب الشعر الحر منذ منتصف القرن العشرين .

وخلال هذه المسيرة الطويلة في العصر الحديث طرات على الشعر العربي نزعات ، وحاولت ان تسميه اتجاهات ، وتبث حول وجهته خصومات . فكانت اول نزعة المحافظين الذين كان اساس نزعتهم البارودي كما كانت قمتهم شوقي . وقد كان هؤلاء يرون ان الطريق الاصلح لمسيرة الشعر ، هو ان يسلك سبيل النماذج الشعرية العربية الجيدة التي خلفتها عصور الازدهار العربية ، بحيث تعتبر هذه النماذج المثل الاعلى للقصيدة في لغتها واسلوبها وروحها وموسيقاها ، لكي تكون بمد ذلك القالب الذي يعبر به الشاعر الحديث عن تجاربه هو وبيئته هو وعصره ، مع ما يفرض ذلك من ضرورة الاضافة والحذف والتفسير والتبديل ، في اطار المحافظة على هذا القالب الجليل للقصيدة العربية .. ثم كانت بعد ذلك نزعة التجديد بين الذين كان من سابقهم مطران ومن مناضليهم العقاد وشكري والمازني . وقد كان هؤلاء يعتقدون ان الاصول لمسيرة الشعر هو ان يتدبر النماذج العربية الماثورة وان يتبع الاتجاهات الشعرية العالمية المسيطرة ، بما لها من قيم فنية ممتازة كالوحدة العضوية والتعبير بالصورة وكالصق الفني ، واتضح شخصية الشاعر ، وما الى ذلك . كل هذا مع المحافظة على طبيعة اللغة وصحتها وعلى الطابع العربي

وتمييزه . .

ثم تولدت - ربما من النزعتين السابقتين مع عوامل ثقافية وفنية اخرى - نزعة شعرية اخرى وهي نزعة الابداعيين ، الذين كان من مشجعيهم ابو شادي ، كما كان من عمالقتهم ناجي والهشمري ومحمود حسن اسماعيل . وقد جنح هؤلاء بالشعر الى جهة اخرى ، فأثروا الرمز ووسعوا في المجاز وجددوا في الوصف ، حتى ابتدعوا في الشعر العربي ابتداءا خطأ به خطوات افسح من خطوات التجديديين السابقين . .

واخيرا - وفي حدود الخمسينات - ظهر اصحاب الشعر الحر ، فوجهوا الشعر العربي او حاولوا توجيهه - الى وجهة تخالف في كثير من ملامحها كل ما عرف للشعر العربي من سمات ، على ايدي السابقين من المجددين . فقد تركوا ما عرف قبلهم من قوالب موسيقية للشعر ، واستحدثوا قوالب جديدة ، اساسها ترك التزام وحدة البحر والقافية ، بجعل وحدة التفعيلة محل وحدة البيت ، وبعدم الاخذ باي لون من الالتزام فيما يتعلق بالقافية . . هذا من ناحية الشكل الموسيقي ، اما من النواحي الفنية الاخرى ، فقد افرد بعضهم في الواقعية ، كما افرد بعضهم في الرمزية ، كما تردد بعضهم بين هاتين والرومانسية . كذلك اهتم اكثرهم بالاسباب التعبيرية الجديدة كالقص والحوار ورسم المشاهد الدرامية واستخدام الاساطير والرموز . كل ذلك مع توفيق حيناً واخفاق حيناً اخر .

وطبعي ان تسبب تلك النزعات المختلفة معارك ، وان تفضي في كثير من الاحيان الى البلبلة وعدم اتضاح وجه الحق . هذا وان كانت كل تلك النزعات وما صاحبها من معارك قد دفعت بالشعر كثيرا في طريق تطوره وصعوده ، بحيث كان تقدمه وسموه - غالبا - اكثر من تعثره وهبوطه . . لكننا مع ذلك لا نزال امام حيرة في بعض امور الشعر ، ولا يزال المشغولون بانتاجه وتقدمه مختلفين حول عدد غير قليل من قضاياها الاساسية . فما يراه البعض خيرا يراه آخرون شرا ، وما تعده جماعة حسنا تعده اخرى قبيحا . حتى لقد وصل الامر احيانا الى ما يتنافى مع المعاصرة ووحدة الثقافة ، مما يحتم محاولات جادة لتصفية الموقف وتوضيح وجه الحق .

وفي رأيي ان اي شعر ممتاز - كاي فن ممتاز - لا بد ان يقوم على دعائمين ، هما : الاصاله والتجديد . اما « الاصاله » فلا بد منها بالنسبة للشاعر الفرد ، ولا بد منها كذلك بالنسبة لمجموع نتاج الامة . فكل عمل لشاعر لا بد ان ينم عن ذاته ، عن روحه ، عن تفرده ، عن عبقريته وموهبته وشخصيته ، تماما ككون عينيه وشعره وبصمات اصابعه . . وكذلك مجموع شعر عصر او جيل او امة لا بد ان ينم عن روح هذا العصر وطبيعة الجيل وشخصية الامة . . ومن هنا لا بد ان يتضح في شعرنا المعاصر - الى جانب تمييز شخصيات الشعراء - تميز شخصية امتنا ، وان يظهر مع روح العصر - روح شعبنا ، وان تتجلى - بالاضافة الى مقومات الفن - مقومات غروبنا في الفكر والفن والحضارة جميعا ، بحيث يحس قارئ هذا الشعر او سامعه انه - فعلا - شعر عربي ، وليس شعرا اجنبيا مكتوبا بحروف عربية .

واما « التجديد » فلا بد منه كذلك بالنسبة للشاعر الفرد ، ولا بد منه كذلك بالنسبة لمجموع نتاج الامة . فكل عمل لشاعر ، لا بد ان يكون مجرد وقوف عند المألوف . ولا بد ان يشتمل على اضافية تحسب لصاحبه ولو يسيرة . وبهذا وحده يمضي الشعر في مسيرته الى امام ، ناميا حيا صاعدا باقيا . فمن مجموع الاضافات الخلاقة والتجديديات البناءة تتألف الخلايا الحية المتجددة في الكيان الشعري . ولا يمكن ان يتكفي هذا الفن - ولا اي فن - بالمحافظة على ملامحه المعروفة وسمانه المألوفة وعناصره الباقية ، لان هذه جميعها من غير اضافة دائمة متجددة اليها تتحول الى ملامح جامدة على جسد تمثال ميت . . وكذلك يتحتم ان يضيف كل عصر وكل جيل في العصر الواحد اضافات تجديدية الى رصيد الشعر ، بحيث ينمو هذا الرصيد دائما ، وبحيث تستمر روح الشعر حية ابدا بفضل

تجديديات الاجيال . والا لو بقي كل جيل يعيش على رصيد الجيل السابق دون اضافة لمضت الحياة مخلقة وراهها هذا الكائن المتحجر الاشبه بما يعثر عليه في الحفريات . .

واذا كان لا بد من تحقق « الاصاله » و« التجديد » جميعا لقيام شعر جيد باق متطور ، فلا بد بالضرورة - من مراعاة عدم طغيان احد العنصرين على الاخر ، لان « الاصاله » اذا طغت على « التجديد » ورطت في المحافظة او اوقعت في التقليد ، ولان « التجديد » اذا جاء على « الاصاله » جر الى المحاكاة العمياء والنقل الابله . . واذا فلا بد « للاصاله » من « تجديد » يكافئها ويسمو بها عن ان تكون تقليدا للتقديم او مجرد محافظة عليه ، ولا بد « للتجديد » من ان يستند دائما الى اصالة تعادله وتعضمه من ان يكون نقلا للحديث واقحاما لشيء غريب على طبيعة الفن الشعري العربي كما تشكلت وتخلقت عبر العصور .

وهكذا نجد لدينا معيارا محايدا - وعلمييا الى حد كبير - يمكن ان نحتكم اليه في كثير من تلك القضايا الشعرية التي لم يتضح فيها وجه الحق ، ونكون قد ربخنا من خلال نظرنا الوصفية في تتبع مسيرة الشعر العربي ، قاعدة معيارية تفيدنا في تقويم الشعر المعاصر وحل بعض قضاياها . فاية ظاهرة فنية يمكن ان نقيسها بهذا المقياس لمعرفة اخر الامر مالها وما عليها . وهذا المقياس هو :

« التآزر بين الاصاله والتجديد » اي تحقق العنصرين معا تحققا متكافئا مترابطين متعادلا ، بحيث لا يغلب العمل الشعري منهما ولا من احدهما ، ولا يطفئ جانب منهما على الجانب الاخر .

وقد برزت لشعرنا العربي - من خلال عمره الطويل - ملامح مميزة ، تعتبر في مجموعها - او اغلبها - اركان اصالته وغنوان تميزه وتفرده . وهذه الملامح هي تلك السمات التي بقيت لنماذجه الخالدة ، التي عاشت معبرة عن الانسان العربي بكل قيمه وروحه واحاسيسه ، وعن الامة العربية بكل طبيعتها ومقوماتها في الفكر والفن والحضارة جميعا . . اما تلك السمات التي تلاشت مع العصور ، فهي عوارض زائلة وليست سمات باقية .

وقد عرفنا من تلك السمات الباقية ما تخلق منذ اقدم الازمان ابان العصر الجاهلي ، مثل ايثار الشعر للوضوح والصدق والتعبير عن تجارب الشعراء وبيئته وتعميق الاحساس بقيمه الرفيعة ومثله الباقية .

كما عرفنا من تلك السمات الباقية ما ظهر بعد الاسلام ، مثل الاستجابة للثورات الانسانية ، والتعاطف مع الحركات التقدمية ، حتى لو اقتضى الامر التوقف حينما لتمثلها ومواقبتها والتعبير بعد ذلك عنها .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية الي ظهرت بعد الاسلام سمة الاستمرار ، التي بمقتضاها رأينا شعراء اسلاميين لا يتخلون كلية عن جميع تقاليد الشعر الجاهلي ، مهما تغير مضمون شعرهم وتحولت غاياته وتبدلت اساليبه بعد مجيء الاسلام .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية لشعرنا العربي ما اتضح خلال العصر العباسي ، مثل الانفساح لاستيعاب كل جديد غير منساف للروح العربية والقيم العربية والذوق العربي ، ورفض ما سوى ذلك مما يمس التومية العربية او الفضائل العربية او تماسك العرب في حياة كريمة فاضلة على ارضهم .

كذلك عرفنا من تلك السمات الباقية للشعر العربي في ذلك العصر ، تعاطفه مع الحياة العربية والبيئة العربية في كثير من مظاهرها المادية والمعنوية ، بحيث استلهم تلك الحياة بمعالها واماكنها واسماها وتقاليدها ، فحقق الواناً من الابعاء العمسوق الاحساس ، بفضل ما تحمل تلك المعالم والاماكن والاسماء من شحنات عاطفية فنية .

ثم عرفنا من تلك السمات الباقية للشعر العربي ابان الازدهار الاندلسي ، مرونته امام الموسيقى المنظورة ، وعدم اكتفائه بالموسيقى

الشعرية التي حدد معالمها الخليل بن احمد .

واخيرا عرفنا من سمات الشعر العربي الباقية ما اكدته مسيرته خلال العصر الحديث . ومن تلك السمات : استجابته للتأثيرات الفنية التي تخدم طبيعته ولا تظلم سحنه . . مثل الاخذ بالوحدة العضوية والميل الى التعبير بالصورة ، ومثل التوسع في المجاز اعتمادا على ظاهرة ترأسل الحواس ، ومثل التجديد في الوصف والاهتمام بالرمز ، والعناية بالانصاف القصصية والمشاهد الدرامية والحوار الحي .

وليس من شك في انه ياتي في هذا المقام اتساع قوله لاشكال جديدة ، كالقصصية والمخيمية والمسرحية ، ما دام هذا في اطار الحفاظ على باقي الملامح السابقة التي اكتسبها الشعر العربي عبر العصور واصبحت من مقوماته الاساسية ولامحه المميزة .

وقد اتضحت تلك السمات المستحدثة من خلال النماذج الجيدة التي خلفها امثال شوقي ومطران والعقاد وناجي ومحمود حسن اسماعيل وعبد الرحمن الشراوي ونازك نزار والسياب وصالح عبدالصبور والفيتوري وعبيد بنودي وغيرهم . . وازدادت تلك السمات المستحدثة التي تقبلها الشعر العربي ملامح جديدة تكمل صورته وتعطي مع سوابقها معالم اصالتيه .

فاذا ما اردنا تطبيقا للمعيار الذي انتهينا اليه - وهو معيار التآزر بين الاصالة والتجديد - على بعض مشكلات الشعر في العصر الحديث ، فلنأخذ مثلا هذه القضايا الثلاث من قضايا الشعر ، وهي قضية « الشعر الحر » وقضية « الفموض » وقضية ( استخدام الرموز ) ، لنرى كيف يمكن ان يهدي هذا المعيار في هذه القضايا الى وجه الحق .

اما قضية « الشعر الحر » ، فبناء على ما انتهينا اليه من اعتبار الموسيقى سمة اساسية من سمات الشعر ، فاننا نرى ان تحقق هذه الموسيقى بوضوح في العمل الشعري محقق لهذا الجانب من الاصالة . وليس بلازم ان تكون تلك الموسيقى هي موسيقى الخليل بن احمد ، لاننا وجدنا الشعر العربي - خلال تاريخه الطويل - قد طرأت على موسيقاه تغيرات عديدة في المشرق والاندلس ، وقد استجاب لها جميعا وغنى بها وازدهر معها . على ان الموسيقى - اخر الامر - جانب جمالي ، والقاعدة فيها مرنة بطبيعتها ، من شأنها ان تتطور حسب الانواع والازمان والبيئات . ولا يفضي التغيير فيها الى خطورة كتلك الخطورة التي يفضي اليها التغيير في القواعد التوقيفية كقواعد اللفظ . ذلك ان التغيير في قواعد اللفظ - او مقتضيات هذه القواعد - يفسد المراد من الحديث ، او يغير المعنى المقصود ، بعكس التغيير في القواعد الجمالية التي منها الموسيقى الشعرية ، اذ هو علامة تجديد وسمة تطور ودليل ملائمة للذوق الجديد في الزمان او المكان .

واما قضية « الفموض » الذي اصبح ظاهرة تطف بالصباب والالغاز كثيرا من نتاج الشعر ، فبناء على ما عرفنا من سمات الشعر العربي الاصالية نرى ان هذه الظاهرة لا تتفق مع « الاصالة » - وان كان لها حظ من « التجديد » في بعض الاحيان وذلك لان شعرنا العربي قد اتخذ الوضوح - في كل عصوره - سمة من سماته الفنية المميزة ، حتى لقد اعتبرت النماذج القليلة المتورطة في الفموض المعنى نماذج بعيدة عن بلاغة العرب ، ووضع النقاد لتعقيدها نوتنا سيئة محذرين من التورط في امثالها . . نعم ليس المراد بالوضوح السفور الكامل والمباشرة المطلقة ، فقد كان كثير من شعر ابي تمام وابي الطيب وابي العلاء محتاجا الى اعمال فكر وامعان نظر واطلاق خيال ، وكان هذا الشعر من غرر الشعر العربي . . وانما المراد بالوضوح البعد عن الالغاز الذي مصدره عدم اتضاح الفكرة ، او عدم تشتمل التجربة ، او مرده الى المحاكاة العمياء لبعض الاتجاهات الغربية ، او مرجعه الى مجرد شطح الخيال وتداعي التعابير او تسجيل كلام غريب للفت الانظار والتسرع بالتجديد . وطبيعي انه لن تدخل في هذا اللون المناهي للاصالة تلك الالوان من التعابير الفنية الشعرية ،

التي تعتمد - في شيء من الفموض الفني الواعي - على اصول عربية مقرة ، وبهذا لا تدخل في الفموض الملتز الذي يرفض لمنافاته للاصالة . . ومن هذه التعابير الفنية الشعرية تلك التي تعتمد على ترأسل الحواس ، فتصف المسموع بما يوصف به الملموس ، وتتحدث عن المسموع وكأنه شيء مسموم ، وهكذا . فهذا اللون من التعابير يمكن رده - بشيء من التأمل - الى التوسع في المجاز ، الذي هو وسيلة جيدة من وسائل التعبير الشعري . فحين يقول شاعر عن لحن « انه لحن ابيض » فيصف المسموع بصفة المرئي ، لا ينبغي رفض هذا بحجة الفموض ، لانه في الواقع ليس الامجازا علاقته الجامعة بين المنقول منه والمنقول اليه ، هي الحالة النفسية الواحدة في كل ، فانا حين استريح للحن هادئ بريء تقي نحس نفسي نحوه ما تحسه حين تتلقى عيني اللون الابيض بصفاته ونقاته وبراهته ، ومن هنا استعير الوصف بالبياض الذي شأنه ان يكون للمنظور ، واخلمه على اللحن الذي شأنه ان يوصف بما يوصف به المسموع . فهذا مجاز بعيد نوعا ولكنه مجاز على كل حال .

ومثل هذا يمكن ان يقال في كثير من التعابير الرامزة والتراكيب الموجهة التي تزخر بها اشعار المنانين من المجددين الحديثين الواعين ، والتي لا تكفي في فهمها معرفة المعاني اللفوية ، وانما تحتاج الى معايشة لعالم الشاعر ، وتمثل لتجاربه وتصور لتحققات خياله . . وهذا كله شيء مقبول ولا يتنافر مع سمة الوضوح التي هي معلم من معالم الاصالة العربية . . اما ذاك الابهام الملتز الذي ليس وراءه عبق تجربة ولا انطلاق خيال ولا توسيع مجاز ولا محاولة ليجاد ، فانما هو شيء بعيد كل البعد عن « اصالة » الشعر العربي ، مهما اريد به « التجديد » .

واما مسألة « استخدام الرموز » التي اصبحت ظاهرة من ظواهر الشعر المعاصر ، فقد اتضحت بصفة خاصة عند الشعراء المتأثرين بالشعر الاوروبي كشمير « البيوت » . وكلمة الحق في تلك الظاهرة - بناء على ما عرفنا من معيار « الاصالة والتجديد » - هو ان تلك الرموز اذا كانت ترجع الى الرصيد الحضاري الفني العربي كانت عنصرا تجديديا ناجحا ، لانه يعوق الاحساس بما يحمل الرمز من طاقات شعورية او ظلال تاريخية او ابعاءات فنية ، دون ان يمس الاصالة التي تفرض الحفاظ على الروح العربي والجو العربي عموما . . اما اذا كان مرد الرمز الى رصيد غريب ، فانه قد يخدم (التجديد) ولكنه يسيء الى « الاصالة » ، حيث يلبو الشعر ذو الرموز الاجنبية - من اسماء واماكن واشارات تاريخية او فنية - وكأنه شعر اجنبي مترجم ، او على الاقل يبدو وكأن صاحبه يفكر بعقلية غير عربية او يطلق بجناحين مستعارين من الشرق او من الغرب ، نعم قد يقال : ان تلك الرموز الغربية ملك للانسانية ، وان استخدامها بين المثقفين ثقافة عالية محقق لغايتها الفنية . ولكني اقول : ان الموسيقى «السمفونية» كذلك موسيقى عالمية وانسانية ، ولكني حين اريد ان اعبر عن نفسي نفما - كعربي - انما اعبر بموسيقى عربية ، حتى اني لو ضمننت موسيقي جملة من « سيمفونية » على سبيل الإيحاء ، لم يخرج ذلك عن كونه تطفلا او سرقة او خلطا . . ان الموسيقى العربي المحافظ على « الاصالة والتجديد » هو الذي يرمز - اذا رمز - بجملة موسيقية عربية لها رصيد شعوري لدى الجمهور العربي اولا ، ولا تلبس الكيان العربي زيا اجنبيا ماسخا نانيا .

وبعد ، لم في هذه المعالجة ما يهب المحاولة بعض النجاح ، فنخرج منها وقد آمنا بوجود تآزر « الاصالة والتجديد » والاحتكام الى معيار هذا « التآزر » فيما يشغل حياتنا الشعرية والنقدية من خلافات ، يمكن ان تحسم ، او بهذا غبارها على الاقل ويتضح وفيها وجه الحق .